المقتطف

الجزء التاسع من السنة الحادية عشرة

١ حزيران (يونيو) ١٨٨٧ = الموافق ٢ رمضان سنة ١٣٠٤

فلسفة اللذّة والألم

الانسان إمّا ان يكتفي بظواهر الامور غير ملتفت الى بواطنها ولا باحث عن اسبابها ونتائجها وهذا قليل وإما ان يدأب على استظهار البواطن واستقصاء العلل والنتائج وهذا قليل ايضاً . واكثر الناس بين هذين الطرفين وجمهورهم أبعد عن الطرف الاخير منهُ عن الاوّل . والذين يبحثون عن العلل والنتائج البحث المدقّق هم العلماء والفلاسفة . ومن المسائل العويصة التي اشغلت بالهم وذهبوا فيها المذاهب المختلفة مسئلة اللذّة والألم فقد اختلفوا في حقيقتها وفي كيفية تكوّنها وتنوّعها لانهُ ولئن كان الجمهور متفقاً على التلذّذ باشياء كثيرة الّا انهم يتفاوتون في اشياء أخرى فبعضهم يلتذ بها كثيرًا وبعضهم قليلاً او بعضهم يلتذ بها وبعضهم يتألم منها . بل قد يتألّم الانسان من الشيء ثمّ يألفهُ ثم يلتذ بهِ ثم لا تعود لهُ طاقة على مفارقتهِ وشاهد ذلك تدخين التبغ فان كثيرين من المولعين بهِ الآن كانوا يكرهونهُ كرهًا شديدًا ثم ألِفوهُ ثم أُولعوا بهِ وقس على ذلك كثيرًا من الاطعمة والاشربة والازياء

وهذا التباين بين الناس يصدق على الألم كما يصدق على اللذّة فان الناس متفاوتون فيهِ كل التفاوت . ذكر للدكتور كربنتر الفسيولوجي الشهير ان بعض الناس كانت تُعمل فيهم العمليات الجراحية الكبيرة قبل اكتشاف الكلوروفورم فلم يكونوا يتألمون منها قط وذلك لانهم كانوا يشغلون افكارهم بموضوع يستولي عليها . وقال عن نفسهِ انهُ كثيرًا ما كان يدخل قاعة التدريس وبهِ ألم عصبي شديد في رأسهِ حتى كان يظن انهُ لا يستطيع القاء الدرس ولكن الألم

العصبي كان يفارقهُ حال الشروع في القاء الدرس ولا يعاودهُ الاَّ بعد ان يأتي على آخره. لا لانَّ الألم كان يفارقهُ حقيقةً اذ اسبابهُ كانت لم تزل موجودة بل لانهُ كان لا يشعر بهِ بسبب ما اشغل افكارهُ من موضوع الدرس. ويشبهُ ذلك ما يُروَى عن خطيب مصقع اسمهُ روبرت هول وهو انهُ كان يخطب ابلغ الخطب وبهِ ألم مبرّح وحالما يأتي على آخر الخطبة ينطرح على الارض ويتمرَّغ عليها من شدة الالم لانهُ كان مصابًا بحصاة تشعَّبت في كليتهِ ودقَّت فيها اطنابها وجرَّعتهُ كأس الآلام دهاقًا. والظاهر ان الشهداء الذين كانوا يحملون العذابات المبرحة كانوا ينشغلون عن الالم بالتصوُّرات المبهجة التي يتصوَّرونها. وقد يكون لذلك علَّة أُخرى وهي ان الالم متى تجاوز الحد والانسان متغافل عنهُ لم يعد يشعر بهِ حينما ينتبه اليهِ. ذكر الدكتور كربنتر ان رجلاً اعياهُ التعب والبرد فنام على حافَّة اتون من اتُن الكلس (الجير) وفي اثناء الليل أُضرمت النار في الاتون واحترقت الحجارة التي فيهِ فلذَّت لهُ الحرارة المتدرّجة وزاد استغراقهُ في النوم. ثم اتصلت النار الى احدى رجليهِ وكان البرد قد ابطل الشعور بها فاحترقت ولم يبقَ منها الاَّ العظم المتكلّس. وفي الصباح وجدهُ الناس نائمًا على تلك الحالة فأيقظوهُ فاستيقظ وسأَل عن حذائهِ ثم نهض قائمًا على رجليهِ وحالما توكأَ على رجلهِ المحروقة تفتَّت عظمها لانهُ كان قد صار كلسًا (جيرًا) ولكنَّ الرجل لم يشكُ ألمًا والارجح انهُ لم يشعر بأَلم. وعاش بعد ذلك اسبوعين في مستشفى برستول. ومعلوم ان الشعوب تختلف في تحمُّلها الالم وهذا الاختلاف قد لا يتوقف على درجة تمدُّنها فالزنجيُّ مثلاً اكثر تحمُّلاً للالم من الاوربي والانكليزي اكثر تحمُّلاً من الارلندي

وهذه الحوادث وامثالها قد دعت العلماء والفلاسفة الى البحث عن حقيقة اللذة والالم لعلهم يدركون كنههما ويتصلون الى تعليل هذه الحوادث وامثالها. وهنا نجد العلم قد دخل دار الفلسفة وكشف غوامضها وحلَّ مشكلاتها

من البيّن انهُ توجد علاقة بين اللذة وبين ازدياد القوَّة الحيوية وبين الألم وبين نقص هذه القوة. فاللذائذ تأَول الى زيادة القوة الحيوية في الفرد او في النوع والمؤلمات تأَول الى نقصانها. وهذه نتيجة مترتبة على الانتخاب الطبيعي ولولا ذلك ما بقي نوع الانسان الى الآن لانهُ اذا التذَّ انسان بامر من الامور وكان هذا الامر نافعًا لهُ فهناك الترجيح انهُ يبقى حيًّا ويخلف نسلاً وتنتقل هذه اللذة الى نسلهِ بالارث فتصير خلقًا راسخًا فيهِ. ولو وجدت قبيلة تلتذ بالامور المضرَّة بحياتها هلكت وتلاشت. وانتقال اللذة والالم بالارث امر مشهور حتى قال الفيلسوف سبنسر ان اللذة التي يجدها الانسان الآن عند رؤية الجبال والآجام موروثة عن اجدادهِ الاولين الذين كانوا

يعيشون في الجبال والآجام ويجدون فيها طعامهم وشرابهم . وقال شيدر ان اللذة التي نجدها الآن عند رؤية الشمس وهي تغيب قد ورثناها عن آبائنا الذين كانوا يلتذون عند دنو الشمس من المغيب وانتهاء اعمال النهار . ولم يزل في الناس ميل الى الصيد والقنص ولذة فيهما مع ما ينالم منهما من المشقة وما ذلك الاّ لان اجدادهم الاولين اعتادوها وكانت معيشتهم متوقفة عليها

والبحث عن كيفية حدوث اللذّة والالم بالنظر الى جسد الانسان كلهِ معًا من باب العبث فلا بدّ من البحث عن كيفية حدوثها بالنظر الى الدقائق الصغيرة التي يتألف منها جسدهُ . فان الجسد مؤلف من دقائق صغيرة جدًّا وكل دقيقة منها تحيا حياةً خاصّة بها وهي تحت استيلاء عملين مستمرّين الاوّل عمل التحليل او الدثور والثاني عمل التركيب او التعويض . فالاوّل يحلّل دقائق الجسم ويضعفهُ والثاني يركب فيهِ دقائق جديدة ويقوّيهِ . فاذا كان الانسان في حال الراحة جرى هذان العملان معًا وكانا متوازنين وحينئذٍ شعر الانسان براحة لا بلذّة ولا بألم . ولكن اذا حدث حادث كالصوت او النور او الوخز ونبّه عصبًا من هذه الاعصاب تنقد هذه الموازنة فيحدث شيء من الدثور الزائد ويتبعهُ في الحال شيءٌ من التعويض الزائد . فان زاد الدثور على التعويض آل الامر الى ضعف الجسم وهلاكهِ وهذا يبتعد عنهُ الانسان ويكرههُ فيتألم منهُ . وان زاد التعويض على الدثور آل الامر الى تقوية الجسم واطالة حياتهِ او حياة نوعهِ وهذا يرغب فيهِ فيرتاح اليهِ ويلتذّ بهِ . ثم ان الحي يحتاج الى الحركة والى تجديد القوى لكي يعيش وينمو فان زاد التعويض زاد تطلّبهُ لهذه الحركة واذا مُنع عنها حينئذٍ ساءهُ هذا المنع فشعر بألم ايضًا . ولذلك فالانسان لا بدّ لهُ من حالة من اربع حالات : الاولى ان يزيد فيهِ عمل التعويض — او ادّخار القوة — عن عمل الدثور — او انفاق القوة — ولا يرى الى الحركة سبيلاً فيشعر بألم سلبيّ كما يشعر الولد الصغير اذا مُنع عن الحركة وهو يتطلّبها لما فيهِ من القوّة المذّخرة . والثانية ان يقع في بدنهِ الدثور بعد استكمال التغذية والتعويض وهناك اللذة الايجابية كما يلتذّ الولد الجيد البنية والصحة بالركض واللعب . والثالثة ان يزيد الدثور مع قلة التعويض كما يحدث لمن يمشي طويلاً فوق استطاعتهِ وهناك الالم الايجابي . الرابعة ان يبطل الدثور بعد التعب الشديد فتحدث لذة سلبيّة بالراحة

والذي يتأمل في هذه الحالات الاربع يجد ان اللذة متوقفة على العمل فاذا لم يزد العمل على القوة المذخورة زادت اللذة بزيادة العمل . واذا زاد عن القوة المذخورة فهناك الألم لان هذه الزيادة تضعف القوّة وتضعف العمل ايضًا . ومرجع كل ذلك الى حفظ الفرد وبقاء النوع . فاللذة والألم دعامتا الانتخاب الطبيعي . وهذا لا يُثبت حجة الماديين لانهُ لا ينافي كون جرثومة اللذة والالم موجودة في نفس فطرة الانسان والاّ فكيف التذّ باول شيءٍ التذّ بهِ

نعم ان بعض الفلاسفة زعم ان جرثومة اللذة انما هي ناموس الانديموس او الجوع الطبيعي ويترتب على زعمهِ هذا انهُ لا تحدث لذة ما لم يسبقها ألم وهو مذهب ليبنتز الفيلسوف الجرماني وثري الفيلسوف الايطالي وتابعهما فيو كنت وشوبنهور وانصارهما من الفلاسفة ولكن المشاهدات تخالف هذا المذهب لان الولد الذي يرى لونًا احمر لاول مرة يلتذ بهِ ولم يسبق هذه اللذة ألم ولا شعور بالحاجة الى رؤية اللون الاحمر لانهُ كان يراهُ في اللون الابيض . والغالب ان اللذة تتبع الألم ولكنها لا تنتج عنهُ ولا تترتب عليهِ . بل انها كثيرًا ما تكون المحرك الاول للعمل في المخلوقات العليا

هذه كيفية حدوث اللذة والألم اما الشعور بهما فيكون في الدماغ وقد ثبت بالامتحانات الحديثة ان للشعور باللذة والألم مراكز مخصوصة في الجهاز العصبي وعليهِ يسهل تعليل الحوادث المتقدمة لان مراكز الشعور مثل بقية اعضاء الجسد تنمو وتقوى وتضعف وتهيج وتسكن وتتغير تركيبها وفعلها . فكما ان مركز حاسة السمع يقوى فيصير يميز ما لم يكن يميزهُ من الاصوات كذلك مركز اللذة يقوى حتى يصير يلتذ بما لم يكن يلتذ بهِ من الطعوم او المناظر او الروائح او الاصوات . وكما يضعف مركز الذوق حتى لا يعود يشعر ببعض الطعوم كذلك يضعف مركز الالم حتى لا يعود يشعر ببعض المؤلمات . وكما يشغل الانسان برؤية شيء جميل عن سماع الضوضاء التي حولهُ او بسماع صوت مطرب عن رؤية المناظر القبيحة كذلك يبطل الشعور باللذة او بالالم اذا كان العقل مشغولاً بامور اخرى . وكما يعتاد مركز الشم على رائحة يكرهها فيألفها ثم يصير يحبها كذلك يعتاد مركز الألم على الشيء المؤلم فيألفهُ ولا يعود يتأثر بهِ ثم يصير مركز اللذة يتأثر بهِ . وكما يختلف الناس في حدة السمع وقوة الشم وسلامة الذوق ودقة النظر كذلك يختلفون في شعورهم باللذة والألم . وكما يشل مركز من مراكز المشاعر فلا يعود يشعر بشيء كذلك يشل مركز اللذة او مركز الالم فلا يعود يشعر بشيء

ويحصل مما تقدم ان العمل المناسب ضروري لكل عضو من اعضاء الجسد لتقويتهِ ولحصول اللذة . وان العمل غير المناسب ضرٌّ وموجب للألم عاجلاً او آجلاً فاللذة والالم من اقوى دعائم الحياة والتقدم

تبيّن من المعارض الزراعية في فرنسا ان قيمة حليب بقرها تبلغ في السنة ١٦٠ مليون فرنك وزبدها ٥٠٠ مليون فرنك وقيمة تعبها مليار فرنك وثمن لحمها اكثر من ٨٥٠ مليون فرنك . وكل ذلك في السنة الواحدة